عَبَثُ العَبِيد

عَبَثُ العَبِيد

إيمان الدواخلي

رواية

تصميم الغلاف: عمرو الحو

رقم الإيداع : 2013/22548

I.S.B.N: 978-977-488-251-7

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور،المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

E – mail :daroktob1@yahoo.com

دار أكتب للنشر والتوزيع : Facebook

الطبعة الأولى ، ٢٠١٣م

عَبَثُ العَبِيد

إيمان الدواخلي

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء: إلى كل من يمنح الألقاب لنفسه

أنا مش أديب.. أنا قلم خالع غطاه.. وقت الطرابيش منتهي بالنسبة لِيه.. يكره قوي.. يلاقي حد ملبس الناس العمم.. خالع على نفسه اللقب من غير وكيل.. مين يابني قال إنك أديب؟!.. يا محترم.. اسمك بذاته امك وابوك ال ادهولك من زمان.. أما اللقب.. مش عافية هي وبلطجة.. بأمارة ايه؟!.. وريني مين اللي اعتمد.. مين السبب؟.. مين لك شهد؟ مين اللي خاتم حضرتك وش وقفا؟.. ياللعجب!



عَبَثُ العَبِيد



(١)

ليه الملايكة بيقتلوا حزن القلوب، لما الأبالسة بياخدوا تاره الصاع صاعين؟

التف إليّ مندهشا..

- دا شعر؟

ضحكت..

- شعر ايه يا عم شايفني كاتب قوافي!

قال من قلبه..

- لا بس حسيتها زي الموسيقى فعلا!

أكملنا صامتين، حتى وصلنا إلى القهوة، وأنسانا الضجيج الشجن.

خبطُ الطاولة والدومينو كأنه في رأسي.. أخرج سدادتي الأذن، اللتين أخذتهما يوم دخلت ذلك الجهاز المسمى بالرنين المغناطيسي، في محاولة الأطباء كشف أسباب صداعي المعاند،

والذي تغلب على مخترعاتهم، وأخرج لهم ولي لسانه، خافيا جذوره. أضع السدادتين في أذني، فيخف الضجيج بعض الشيء، وأبدأ في شد الدخان بمزاج أفضل.

سألني، وأنا أسمع كلماته متقطعة، وإن فهمت ما يسأل عنه، فحوار اليوم كله متوقع من قبل أن نلتقي.. أجبته وكأني أراها..

- عارف إحساس إنك لغيت السن والمكان وكل قواعد الدنيا وبقيت من ثوابت الحياة، زي النجوم في السما والشمس كل نهار والمية في الأنهار؟ الفرق بين النظريات والآراء وبين الحقائق؟

ابتسم مشجعني على الاسترسال، وما كنت في حاجة إلى أكثر من إشارة البدء، فشردت، لا أسمع ما أحكيه له، بل أسمع رنة ضحكتها الطفلة.. كانت براءتها تثيرني، حين تنتهي فصول دهشتها عند كون البطيخ من الخضر، والطماطم – الصلصة كما تعلق وهي تضحك– من الفاكهة!.. لم أدرِ ما حكيت وإلى أين من الحكاية وصلت، لكنه سألني السؤال السخيف، المتوقع أيضا.. ذلك السؤال الذي لا ينم إلا عن غباء، أو عن أن من يسأله لم يرتقِ بعد إلى الآدمية، ووقف عند مرحلة داروينية أحط..

فراقنا هو اقترابنا.. البعض، يا صديقي، لا يصلحون إلا عشاقًا.. يلوثهم أن يقتربوا أكثر.. كيف أشرحها لمثلك منحط؟!

ينظر، ولم يزل، بابتسامة بلهاء، مصرًّا أن ينتظر الإجابة.. يهز رأسه بعد هنيهة، ويسحب نفسا قويا يكركر في ال (برطمان) بين قدميه، ثم يرفع عينيه في عيني بتخابث ثقيل الظل..

- طيب هي تابت يعني، وللا كنت تباصيهالنا

لن ألومه.. ليست مأساته أنه وضيع، فهو راضٍ تماما بوضاعته؛ هي مأساتي أنا.. خطأك وحدك أن تعتبر كل قريب منك طيبا.

قاطعني مرة أخرى..

- بس ما قلتش.. ايه حكاية الأبالسة والشعر اللي قلته في الأول دا؟

نفخت يائسا.. للأسف أحتاج الكلام؛ حتى وإن كان لغبي..

تذكرت، حين ضجرت ببراءتها يومًا، حين صرخت بها أن كل انتقادها للمجتمع هو مجرد حيلة، تطمئنها لرضاها عن نفسها، وقت تتيقن أنها، في الخفاء، ساخطة عليها. سخرت منها بقسوة، قلت إن المشهد كله فسدة فجرة نعم، وما أيسر أن تقلب شفتيك امتعاضا وقرفا منهم عن قناعة، وعن حسد!.. كان وجهها كأنما منحوت من الثلج، ذهب لونه، وتجمدت انفعالاته، ولولا دمعة تنحدر على خدها، لظننتها ماتت.. وبعند البغال أبيت التراجع!

- ما هي كانت ملاك يا أخي.. غسلت كل حزن الدنيا من قلبي

قاطعني صائحا:

- الله الله الله

أقسم، دون مرآة، أن وجهي صار أكثر احمرارًا من جمر الشيشة، التي رفع مبسمها بيده، كأنه يرقص بها، والجالسون يمدون أقفيتهم فضولا حولنا. وضعت كوب الشاي من يدي، وقمت، ومددت يدي إلى جيبي، لأخرج ثمنه، فأمسك ذراعي بقوة، وقال بأريحية تغيظ:

- عيــب.. الشاي عندي أنا النهاردا.

ماذا أصابه؟!.. أهو منذ البداية غبيا هكذا، أم أنا الغبي إذ لم أر؟!.. أهذا من كنا نقسم بعبقريته، أول دفعتنا؟!.. سألته مندهشا أو مستنكرًا، لا فرق..

- بذمتك أنت أول الدفعة أنت؟

ضحك.. كثيرا جدا، وعاليا جدا.. أخذ يضرب على فخذه، وكلما همَّ بالرد غلبه الضحك أكثر، ودمعت عيناه، وانكفأ بوجهه على ذراعه فوق المائدة.. سقط كوب الشاي، وانكسر، فضحك أكثر.. وعجزت عن التحرك من مكاني حتى أفهم ما به.

أخيرا، من بين ضحكاته، خرجت الكلمات..

- آه... أنا.. أنا أول الدفعة... وصاحب الضربة الجوية كمان حتى شوف...

عاد للضحك، حتى انقطع نفسه، وأمسك صدره متألما.. سحبت الكرسي، وجلست في صمت، أنتظر أن يهدأ.. حين وجدتها تترائى أمامي، تسرقني ممن ومما حولي، أزحت طيفها

بعيدا، قائلا لها في داخلي: "مش وقتِك".. أعرف أن ذلك لن يضايقها، فقد اعتادت ألا أكلمها إلا حين صفاء ذهني لها.

رفع رأسه من على المنضدة أخيرا، بوجه محتقن، أقلقني..

- أنت كويس يا هشام؟

بدأ الضحك ثانيا بصوت خفيض مبحوح، لا يكاد يستطيع إخراجه..

- اسكت بقى ياض.. ما تضحكنيش تاني.. قطعت نفسي هتموتني.

جلست صامتا، فقط أرقبه، وأنتظر..

فزعت، إذ قام فجأة، فانقلبت المنضدة الصغيرة، المتأرجحة أصلا، ودون أن ينظر ناحيتي..

- أنا ماشي

لم أقم وراءه، فأفضل ما له — من وجهة نظري الآن— أن يكون وحده.. أحسست بالقرف من أولئك الذين لا يفعلون إلا الـ (تلقيح بالكلام) حولي.. وأحسست بالقرف من نفسي.

(٢)

لا داعي.. بل يجب.. هل يجب على أحد شيئا، وهو مكتفٍ بتذمر نفسه من نفسه؟!.. أف.. سأتصل به، وكفاني تبريرًا

رن هاتفه ثلاث مرات ولم يرد.. مريحة تلك الهدية من الدنيا، أن تهم بالصُح، ثم لا يكون لك فيه نصيب. ذلك أفضل جدا.

لم يطل ابتهاجي، فقد رن هاتفي، لأجد اسمه على الشاشة.. بالتأكيد إمكانية التنصل غير متاحة..

- ايه يا عم انت لسه عايش؟ دا انا افتكرتك مت بعد منظرك امبارح

ضحك، تلك الضحكة المجلجلة التي اشتهر بها مؤخرا في القهوة..

- يخرب بيت دي اصطباحة

سكتُّ لبرهة، ثم سألته:

- بتخاف من الموت؟

سبني، سبة لا داعي إطلاقا لذكرها، قبل أن يقول:

- أشوفك عالقهوة بالليل.. في حوار كده عايز أكلمك فيه

قبل أن أرد، لحقني..

- بس الله يكرمك ارمي البت بتاعتك دي في أي درج في بيتكم قبل ما تيجي ماهيش ناقصاك بجد

انتهت المكالمة.. لن يصنع فرقًا أن أفكر فيما يريد الحديث عنه، فالأمر لا يبعد أكثر من ساعات قليلة. سيطر عليّ سؤالي أنا: "بتخاف من الموت؟".. كانت رؤى تخاف الموت إلى حد إفساد لقاءاتنا. أنا أيضًا أخافه.. أهناك من لا يفعل؟!.. حتى الله، كثيرون لا يخافونه؛ لكنه الموت، ذاك الذي يخافه الجميع.

رؤى.. تأخذني أكثر مما كانت معي.. لا أدري لِمَ إصرارها على الفراق.. اليوم هو موعد حضورها، ولن تأتي. يؤلمني جسدي كله شوقًا إليها.. كنا – معا – طوال كل أسبوع، في

غربة تشرِّدنا عن الكون وما فيه، حتى يعجننا العشق في ذلك اليوم طينا لازب، آدم وحواء يشعلهما إبليسهما نارًا من جديد، خطيئة جديدة تمنحهما لذة الآدمية، وتتيح لهما متعة الطمع في المغفرة.. كم كانت تتعبني توباتها كل اثنين، لتتراجع وتكافئ تعبي كلما اقترب الأحد. وكم أذلتنا بتوبتها الطويلة هذه المرة.

- آاااااااااااااه

- مالك يا سامح في حاجة؟

يفزعني صوت أمي، التي نسيت أنها هنا، فأزفر ضجرًا.. لقد أفزَعَت طيف رؤى أيضا، فهرب.

(٣)

اتجهت إلى حيث هشام في الركن بالداخل، وقد احمر وجهه من كتمة الهواء، وكثرة الدخان. لم أجلس، بل أشرت له أن يخرج إليّ، وسبقته، فتبعني وهو يتأفف بصوت يتعمد – على ما أعتقد – أن يسمعنيه.

جلست، وجذب هو كرسيًا وجلس ممتعضا يقول دون انتظار..

- ايه يا عم سامح يعني أنت جي متأخر وهتقعدني على مزاجك

- متأخر ايه يا عم، الشمس لسه طالعة والدنيا حر، هانزل بدري عن كده ايه.. وبعدين أنت نزلت بدري، كلمني قل لي وأنا أنزل لك، دول كلهم اربع عمارات مابين القهوة والبيت.

أشاح بيده ضجرًا..

- نهايته.. الدنيا حر ومش ناقص مقاوحة

غلبني العناد، فقلت:

- مقاوحة ايه.. أنت متلكك على خناق والسلام؟!.. عايز تقعد جوة غور، أنا عن نفسي مش داخل.

كانت نظرته مأساة ناطقة للحظة، قبل أن يجذب كرسيا ويجلس، ودون عتاب أو مقدمات قال:

- عايز عشرة الاف جنيه سلف

كأبله يستغرب نفسه في المرآة نظرت له دون رد. تأفف، ودفع رأسي، الذي اشرأب للأمام، وسأل في سخافة:

- انت مش أهلك أغنيا وبقى لهم ١٠٠ سنة في بلاد الجاز والبوتاجاز؟.. وبعدين مش باشحت منك، أنا بأقول سلف

إعمال العقل في الأزمات مسألة نظرية بحتة، لكنني وقتها حاولت مع عقلي كثيرًا، على الأقل لكي يلجم لساني، فأمي هناك في البيت القريب، بعد أربع بنايات فقط، ولو سمعت ما يطفو من ألفاظ داخلي الآن، فسيصيبها انهيار عصبي..

- دول عايزهم في ايه واشمعنى فجأة كده؟

- باختصار كده قررت أهج خلاص.. عندك مانع؟

هنا أفلت عقلي من لجام الحكمة.. ضحكت، حتى آذيته، وأنا أعرف أنني أؤذيه، لكن الغيظ ملكني.. قلت له وأنا أخبط كفا بكف..

- لأ ما عنديش مانع.. عندي عشرة الاف جنيه هتاخدهم وتهج!

لحسن الحظ، لم يكن الشاي قد وصل بعد، فنجوت من حرق وجهي، واكتفى صدغي ببصقته. لم أغضب، بل أفقت إلى أنني تخطيت حدود الإنسانية بحجة عشم الصداقة والفكاهة. أمسكت يده، وبصدق من قلبي قلت له في هدوء:

- معلش ما تزعلش.. معلش يا عم ما أنت كمان عارف اللي أنا فيه اليومين دول

لكزته بكتفه، فابتسم..

- عارف يا صاحبي.. عارف إنما أنت مش عارف حاجة.

أرسل بصره بعيدا، وظل صامتا، وأنا أحاول أن أستنطقه أكثر، أو أن أشرح له صعوبة طلبه، وأسأله أن يتكلم أكثر لنناقش الأمر بوضوح يصل إلى حل.. لم يجبني إلا حين قال:

- أنا قايم

ومن القول إلى القرار إلى حيز التنفيذ، لم يستغرق أكثر من ثوانٍ، ولم أحاول الاعتراض. راقبته لدقيقة، ثم تذكرت أن هذا نفس ما فعلته بالأمس.. ليس كل مرة يحتاج الإنسان للاختلاء بنفسه بالتأكيد. ألقيت على المنضدة حساب الشاي، الذي لم يأت بعد، وجريت وراءه.

- في ايه بس يا هشام؟ انت عارف أنا ما اتأخرش عليك بس مش في ايدي، ما هو أهلي اللي بيشتغلوا مش أنا

رد بنبرة مخنوقة:

- خلاص يا سامح ما تدقش

- طيب هو انت لقيت سكة للسفر وللا ايه الموضوع؟

حاولت أن أتفكه، وأخفف القتامة الحاصلة..

- تاخدنا في ديلك يعني وتشوف لي سكة أنا كمان، ما البت خلعت مني ومابقتش العملية طالبة قعدة في البلد المعفنة دي

نظر لي وهو يعض صدغه من الداخل بحركة عصبية، ويعبس بحاجبيه قليلا، ثم يسألني:

- لو عرفت آخدك معايا تتصرف في الفلوس؟

(٤)

- ردي بقى!

لا أدري ما نهاية عناد النساء الغبي هذا. بدأت فعلا في خطوات السفر، ولم تعترض أمي، ومنحتني ما يريده هشام — بالطبع لا تعرف أنها تدفع لاثنين — .. رؤى الغبية لا ترد.. أحتاج أن أخبرها بمشروع الرحيل؛ حتى وإن لم تكن ضمن خطتي!

أشرد مع الفراش، فأراها.. فقط هنا كانت تتنصل من براءتها، وتكون كأحلى ما أتمنى أن تكون.. وخارج هذا الباب، كانت ترتديها ثانية، فتكون أيضا كأحلى ما أتمنى تذوقها حبيبةً. تريدني زوجا للأسف، وهذا عيبها الأكبر.. ربما عيبها الوحيد.

هذه هي المرة المائة ربما، التي أرن على هاتفها حتى يفصل، وهي تصر على عدم الرد. أعرف، بل أثق أنها ترى اسمي أمامها فتجن؛ ولكنها مبادئها اللعينة تجرئها على عصياني.

- يا زبالة ما كانت مبادئك بتاخد أجازة في السرير ما تعمليليش فيها خضرة الشريفة

أشخر محتقرا نفسي.. أعرف أنها ربما أشرف من تلك الخضرا، التي لا أعرف من هي.. بل إن أجمل ما فيها كان أنها شريفة في عشقي إلى حد التوله.

- ردي يا رؤى بقى وأنا اتجوزك دلوقت حالا

- آلو

انتفضت.. لم أصدق أنها ردت بالفعل.. هل سمعتني؟!

–ايه

–ايه!

–لأ معلش أصلي ما توقعتش تردي..

–..........

–وحشتيني يا رؤى

مرت لحظة قبل أن ترد..

-ما وحشتنيش يا سامح.. أنت مش وحشتني، أنت قتلتني..

قاطعتها..

-رؤى.. أنا هاسافر.. كان لازم أقول لك و..

قاطعتني هي هذه المرة..

-ليه؟

-هو ايه اللي ليه؟!

-ليه كان لازم تقول لي؟

هتفت:

-رؤى أرجوك.. خليكِ رؤى اللي عرفتها وما تقلبيش زي النسوان كده

رقت نبرتي وأنا أكمل:

-رؤى الحبيبة والصاحبة والفكر والعقل..

ثم أكملت همسًا؛ أعرف أن ذلك يخطفها من نفسها:

-والعشيقة اللي منح الحب عندها احتراف

وهن صوتها، وتأجج بين الشوق والتمنع..

-بس.. أرجوك بس

-ما ينفعش، أنا ما صدقت انك رديتِ

-هاقفل

-لأ

تنهدت وسكتت.. فقلت أنا:

-هو ينفع أسافر من غير ما تسلمي عليّ؟

-أنا ما صدقت بعدت يا سامح.. أنت حملتني أكتر مما أي حد يحتمل..

-أرجوك أنت يا رؤى.. أنت عارفة أنا قد ايه حبيتك وكنتِ ليَّ كل الناس.. استغنيت بك عن أصحابي وأخواتي وحتى أمي..

قاطعتني بانفعال...

-وشيلتني مهام كل دول.. تعبت.. تعبت يا سامح وفي الآخر ايه؟

-الجواز برضه؟.. أنا لو مش عايز اتجوزك من باب الندالة كان بقى عندك حق. إنما انا حافظت عليكِ حتى وأنتِ تحت مني يا رؤى

صرخت تقاطعني..

- أرجوك.. نفسي أنسى أني عملت كده.. نفسي أنسى ضعفي ورضوخي و..

أخذتني العزة، فقاطعتها..

- لأ معلش ما تقوليش رضوخي، احنا ما عملناش حاجة برغبة واحد بس فينا، ولا حد ضغط على التاني.. أنت كنتِ عايزة زي ما أنا عزت، واستجبتِ زي ما أنا استجبت بالظبط.

أجابتني بصوت استرد هدوءه..

- صح.. كل كلمة قلتها صح.. بس أنا ما رفضتكش في الآخر.. أنا اللي اترفضت

- لأ.. لأ يا رؤى أنا مستحيل أرفضك، دا أنا هاموت عليكِ.. اسألي هشام، أنا ما أستحملش عليكِ الهوا.. بس

احنا عشاق يا رؤى.. أجمل حاجة في الدنيا.. الجواز تشويه للعشق مش عايزه لعلاقتنا دي.. مش عايز غير أني أشوفك العاشقة الرائعة المذهلة

- اللي يحب يحب شروة واحدة يا سامح، مش بس بيختار الصفات الحلوة يحبها، ولا بيعوز حبيبه من غير مسئوليات.. للأسف مش هنتفق في الموضوع دا، وبالتالي بلاش تحاول تتصل.. رغم... أنا مش هاغير رقمي ولا هاقفله.. يمكن في يوم تغير نظريتك الأسطورية دي وتنزل للواقع

لم أرد.. ولم ترد.. وفي النهاية أنهيت أنا الاتصال. يبدو أنني حقا يجب أن أنزل إلى الواقع.. وأعترف أن علاقتنا انتهت!

ألقيت الهاتف بعنف، واتجهت إلى الحمام، ولأبدل ملابسي.

(٥)

في ذلك الركن السمج جالسته هذه المرة دون اعتراض.
كنت مشلول التفكير، وهو يلح بقوة.. يثير شفقتي إلى أقصى درجة، وإن كان ذلك ليس سببا كافيا لأقبل عرضه.

- يا حبيبي مافيهاش لا مشكلة ولا خطر.. اعتبرها حتى عمل وطني..

كدت أهبش وجهه لشدة غيظي..

- وطني ايه يا متخلف.. أنت ايه اللي وقعك مع ناس من دي أصلا؟

- اسمعني بس.. لما تخرج مخدرات من البلد تبقى بتخدمها وللا لأ؟.. وانت مش خسران حاجة، تبلعها بالكيس وهوبا عالحمام، خلصت الشيلة

- أنا مش مصدق أنك واخد الموضوع بالبساطة دي!..
عموما يا صاحبي ما تعملش حسابي معاك.. خسارتك يا هشام بجد

زفر في ضيق..

- خسارتي! ما دا من زمان مش جديد يعني.. أول الدفعة أنا؟ ططظ.. عملت بيها ايه؟.. اسكت يا سامح أنت مش حاسس بحاجة أنت أهلك معاهم احمد ربنا

سكتُّ لبرهة أتأمله، لتطرأ فكرة مجنونة، معقولة.. أو فلنقل أن لا مانع منها..

- طيب ما بدل الانتحار في السفر وللا المخدرات اللي هتزلطها دي ما تتجوز

ظهر على وجهه البله جليا، وهو يرفع حاجبيه، ويكشكش عينيه، ويهز رأسه مستفهما، فأدركته بالإجابة..

- بصراحة باتكلم على أمي.. (دفعته من كتفه أجلسه) اصبر بس.. الست زي الفل قمر وما يبانش عليها أن شحط قدي يبقى ابنها، ومعاها فلوس كويسة، وهتسافر وتعمل لك استقدام وتشتغل هناك.. يعني مصلحة زي الفل.. أقول مبروك؟

بهدوء، أو ذهول؛ لا أدري، قال:

- بتخطب لأمك يا أهبل!

تنهدت.. كيف أشرح له؟.. أمي تشتهي الرجال، وتستحي التصريح بذلك، والنتيجة أكثر سوءً. ماذا لو ارتضت هشام زوجا، أو ذكرا، كذكر النحل، يريحها، ولا يؤثر أيهما في حياة الآخر كثيراً؟.. أقسم أن كرامتي ستجد الراحة إن حدث. أومأت مبتسما أن نعم، فـ.. احم.. فسبني بها!

(٦)

لن يجدي كل هذا الصمت، فليس إلا أن أسألها مباشرة.. تكره أن يقاطع متابعتها للمسلسل شيء، ولكن الموضوع سيجذبها أكثر من المسلسل.. أعرف ذلك..

- باقول لك يا حلوة.. أنت مش ناوية تتجوزي تاني؟

التفتت لي رافعة حاجب واحد، لا أدري هل ذاهلة أم ساخرة.. لحظة ثم ضحكت وسألتني..

- ايه جايب لي عريس يا حيلة أمك؟

- حيلة أمك!.. هو أنت بتتكلمي زينا كده؟.. سوقية يعني!

خلعت شبشبها في لحظة، وفي اللحظة التالية كان يصطدم بصدري، قبل أن أدرك أنه طار في اتجاهي..

- سوقية يا قليل الأدب يا عديم الرباية!..

ضحكت، الكلمة غريبة حقا أن أقولها لأمي، ولكن ما البديل؟ هي هكذا لا أجد تعبيرا آخر..

- ايه بس يا قمر.. ما أنت أصلك حلوة وشكلك ما يديش أنك مخلفة شحط زيي

انقلبت نبرتها جادة..

- هو أنت بتتكلم كدا مع البنات لو من سنك؟

- آه عادي يعني

- عادي!

يبدو أننا سنبدأ درسا في الأصول والمفروض وجرائر أبي في عدم فهم أنوثتها.. إلخ إلخ

- ما هو الصاحبة حاجة والحب والحاجات دي موضوع تاني يعني. المهم بس سيبك، عندي للكِ عريس بجد..

لم تعلق.. بدت على وجهها حيرة حقيقية، أو ربما إحراج الموقف.. إنها من أولئك التقليديين، الذين يحرجهم لا شيء.. عجبا!.. لو أنها تنام مع أحدهم سرًا، لما تحرجت هكذا، ولكن العلن يحرج أولئك الأغبياء..

- الواد هشام صاحبي.. ايه رأيك؟

هتفت..

- مين!

ببساطة أجبت:

- هشام.. واد سكرة والله.. أنا قلت له، بس هو لسه مخضوض كدا زيك بالظبط.. بس لو حسبوتها صح هتلاقوها مصلحة حلوة وانتم الاتنين هتستفادوا

في عدم استيعاب، هزت رأسها، وقالت:

- قلت له!.. مصلحة وهنستفاد!.. في ايه يا سامح، أنت اتهبلت وللا في ايه؟!

يبدو أن الأمر سيدخل في سكة الملل.. زفرت في ضيق، وقمت من مكاني..

- أنت حرة بقى.. انا شايفها فرصة كويسة لكم أنتم الاتنين.. عايزين تعيشوا الدور واتحايل عليكم شوية وماله اتحايل، بس قولوا عالصريح علشان ما يبقاش تقل دم عالفاضي يعني

هممت بالذهاب من أمامها، ولكنها هتفت بي..

- خد يا واد هنا..

- نعم!

- مش هشام دا اللي كنت هتسافر معاه وخدت الفلوس عشان كدا؟

- هو

- يعني واد صايع ومفلس وعايز تجوزه لأمك مصلحة فلوس؟!

بأبسط مما تخيلت هي، رددت:

- ما دي المصلحة اللي هتنوبه.. أنت برضه هتاخدي شاب زي الورد وأول دفعته والدنيا ملطشة معاه يعني دا مش ذنبه دا ذنب البلد بنت الـ....

قاطعتني صارخة..

- اخرس

نظرت إليها متفحصا وجهها.. أقطع ذراعي إن لم يكن العرض يغريها.. ابتسمت، وتركتها إلى غرفتي.

(٧)

اليوم زارني عدوي البئيس الأكبر.. منذ فترة نسيت زياراته، وكأنما كان يستجمع زيارة اليوم ثقيلة مهلكة. معدتي منذ شهور لا تحتمل المسكنات، وأنذرتني أكثر من مرة ببعض التعرقات الحمراء في قيئي، فلم يعد أمامي سوى الحقن، وحتى تلك، لا أظن ستجدي هذه المرة.

تناولت هاتفي، واستخرجت اسم سعيد، واتصلت..

- ايوة يا سو.. باقول لك.. عايز إبرة مورفين ١٠ أنا الصداع قاتلني........ باقول لك ايه مش هنهزر اتصرف..... لأ ابعتها لي مع هشام أنا مش قادر انزل.. ماشي يا مان سلام

اتصلت بعدها بهشام، فأخبرته بالأمر، ثم التجأت إلى الوسائد أدفن رأسي فيها علها تقتله؛ لكن لسانه كان ممتدا لغيظي، حتى أحسست كأنه يلعق أنفي.

- اطفي الهباب دا وللا وطي الصوت

هكذا صرخت فيها.. كانت أول مرة أفعلها، فهي لم تحضر معي نوبات الصداع من قبل.. رؤى من تعرفها.

ردت بعصبية، بسيل من سباب الأمهات المهذب، قبل أن تصل إلى مدخل الحجرة، فتشهق، إذ تراني على حالي هذا. لم أكن لأحتمل منها شفقة، فقد نسيت تلك العلاقة قديمة الطراز منذ سنوات. هي أيضا لم تسعفها أمومتها القديمة لي بتصرف حنون قد يثير لساني؛ لكنها سألتني في نبرة قلقة:

- أنت محتاج دكتور؟

هززت رأسي أن لا، دون رد، فوقفت للحظات، ثم انسحبت، وهدأ صوت التلفاز، ثم عادت. فقط، جلست على الكرسي في طرف الغرفة؛ وفقط، ظللت مغمضا في انتظار هشام.

رن جرس الباب، فانتفضت في مكانها، فقلت لها إنه هشام أحضر الدواء، فخرجت لتفتح له وتدخله. قبل أن تعود لجلستها، سألته عما يريد أن يشرب، ففهم إشارتي وطلب منها بأدب كوبا من الليمون اليدوي.. ابتسم وأضاف:

- معلش مش باحب مرار اللي مضروب في الخلاط

هزت رأسها بابتسامة باهتة، وذهبت لإعدادها، بينما أخرج هو الأمبول من جيبه، ثم ضرب جبهته وهو يقول في غباء:

- أخ... نسيت أجيب سرنجة

تأففت، ولكنني ملت إلى جانب الفراش الأيمن، وأخرجت من الدرج المجاور سرنجة وناولتها له. وهو يعبئها قال:

- بس سعيد بيقول إن ١٠ دي ممكن توقف نفسك وتروح فيها

هززت رأسي مستهينا..

- سيبك منه دا جاهل.. الكلام دا لو هاخدها في الوريد مش في العضل

ضحك وقال:

- يا خوفي يا بدران لا تفطس وأمك توديني في داهية تقول لي قتلته

لم أكن أستطيع الابتسام. دسها في ردفي، وأفرغها به وجلس إلى جواري صامتا، حتى أتت أمي بالليمون. بعد أن قدمته، ومعه بعض البسكوت، سألته:

- خد المسكن؟

في اضطراب وحياء رد:

- آه خده.. بالشفا إن شاء الله

سكتا كلاهما، واستسلمت أنا لخدر الدواء، وتلك الرغبة القميئة في التقيؤ لولا خواء بطني. ربما نصف الساعة وأنا على هذا الحال، حتى بدأت أستفيق.. كانت الأسرع..

- ايه يا حبيبي عامل ايه؟

أومأت برأسي، وأجبتها مجتهدا لرسم ابتسامة:

- الحمد لله يا نسرين يا قمر أنت

نظرت نحوه، وغمزت بعيني بصفاقة..

- دي نسرين يا هِش اللي كلمتك عليها

تلون وجهه كمراهق كشفوه يقبل جارته، بينما التفت إليها، والغضب يختلط بالحياء بالفضول في محياها..

- ودا الواد هشام.. واد يتاكل أكل

ضحكت وأنا أكاد أكون مغيبا، ثم أشرت إليهما أن يخرجا من الحجرة، وأغمضت عينيّ.

(٨)

– يا حبيب ماما ما ينفعش.. هو أنت بتشبط؟!

قالتها بعصبية، أظنها تعني نفي نفيها.. الأمر ربما يحتاج فقط لبعض الإلحاح.. قبل أن أبدأ، سبقتني لتقول:

- أنت عارف بتفكرني بايه؟ لما كنت تقعد تخبط عليّ في الحمام لحد ما تقومني، وتطلع عايز توريني الشخبطة الفنية المهمة جدا اللي رسمتها... أف!

قامت وتركتني بلا فرصة لمحاورتها.. هل أيأس؟ هشام تعشم في الأمر، وأبلغني موافقته.. النساء كلهن مقرفات.. كلهن.

في المساء، وقد أعدت لنا كوبين من الشاي، دعتني لشربهما بالشرفة، قالت إنه حين تعود الذاكرة ما وراء ربع القرن، يتعجب الحاضر كيف نأى كثيرا عن أن يكونك. قالت إن الماضي ميت، يضحك ممن لم يزالوا يتعجبون. قالت إنها لم تعد تحتاج للزواج.. في صراحة أكثر، وهي ترسل عينيها بعيدا عبر الشارع، قالت إنها ربما تحتاج لقصة خيالية، ترفع

معنوياتها قليلا، لكنها ليست تلك الشابة التي تحتمل إرضاء رجل في غير الفراش.. قالت لا لكل تكاليف البيت ومهماته، وإن تمنت نعم ذكرًا تعشقه.

ابتسمت في بلاهة.. ربما ضايقها ذلك؛ أو ربما لا، لكن المسألة أنني لأول مرة أشعر أنني أشبه هذه المرأة.. تذكرت رؤى، وتمنيت لو إنها معنا وسمعت وجهة النظر ذاتها من امرأة، لتدرك أنها فكرة طبيعية جدا.. ضحكت..

- بتضحك على ايه؟

رددت في هدوء:

- مافيش.. بس اكتشفت انك أمي

بحلقت فيّ لحظة، ثم ضجت ضاحكة.. وحين انتهت من ضحكتها، قالت في مرح:

- يعني لو أبوك معانا دلوقت، وللا أي جوز تاني كان هيسيبني أضحك كده في البلكونة، وللا كان هينكد عاللي جابتك؟.. يا شيخ بلا قرف

ابتسمت ساخرا:

- بلا قرف!.. وماله ما هو أبويا يعني، مش حد مفروض احترمه مثلا ولا حاجة خالص إطلاقا

صمتت، نظرت ليّ في عتاب، ثم قالت بعد تنهيدة..

- اللي بيني وبين أبوك دا بين اتنين فشلوا سوا كزوجين وعلاقتهم انتهت؛ إنما أنت دا أبوك وعلاقتكم ما بتنتهيش ولا بالموت. دي غير دي

هززت رأسي متفهما ومبتسما.. لكنني لم أربت عليها، وتلك الأشياء الحنونة، التي ربما تمنيت أن أفعلها.. كنت قد اكتفيت من الأمر، فسألتها سؤالا أخيرا وأنا أقوم..

- يعني أقول لهشام إن خلاص كده؟ وللا لسه هتفكري؟

رفعت عينيها لي بابتسامة، وقالت فيما لا أدري أجد أم هزل:

- هافكر...

يخرب بيت دماغ الحريم!

(٩)

تهلهلني العصبية حين أعجز عن تحقيق رقم جديد، فما بال ألا أصل ثانية لرقمي الذي كنت من حققه بالفعل. يبدو أنني سأمحو اللعبة كلها من الجهاز، ويكفي كل ما أحرقته في عصبيتي من سجائر، أكلت صدري ومعدتي.

تراقبني وهي جالسة خلفي، وتقول لي؛ أتخيلها مبتسمة:

- طول عمرك نفسك قصير مش بتصبر على حاجة

دون أن ألتفت رددت:

- طالع لأمي.. كنتِ صبرتِ أنتِ على أبويا

قابلت تبجحي بضحكة، استغربتها.. أهي تجر ناعم الكلام، لأجل هشام؟.. يمكنني القول إن النساء تدمنَّ تبرئة أنفسهن كذبًا، لذا فلن أسألها.

تركتها، ونزلت إلى القهوة.. في الطريق، رن الهاتف، وكان هشام. بدون أي سلام أو مقدمات..

- أمك هتتنيل تتجوزني وللا لأ هي كمان؟

أذهلني.. حاولت تمالك نفسي، ورددت بسؤاله:

- في ايه يعني لقلة الأدب دي عالصبح؟

صاح كأنما ينهرني على خطئي، الذي تسبب في المصيبة..

- الواد اتمسك، والفلوس راحت، ومتنيلين مرزوعين في أم البلد دي خلاص.. أمك اللي فاضلة قدامي هتتجوزني وللا الواحد ينتحر ويخلص من أم العيشة السودة؟

كدت أضحك؛ لولا أن خفت أن يموت بجلطة إن فعلت.. بالتأكيد موقفه يختلف عني، وأحمد الله على فلوس الوالدين..

- طيب أنا رايح عالقهوة دلوقت تعالى لي ونتكلم بالراحة

ورفعت بنبرة صوتي مصطنعا العصبية..

- وبطل أم الهبل اللي أنت فيه

أنهيت المكالمة دون أن أنتظر رده.. فكرت أن فأل اللعبة جاء صريحا جدا.. لا يمكن إحراز نقاطًا جديدة للأسف.

- لو حد بوظ حاجة مش بتاعته يروح هو يسامح اللي هو كسر لعبته

- ابقى قول كده لابوك يا خويا

مر هذا الحوار بجوار أذني، ليصدمني دون سبب.. لا أدري لمَ شغلني ما سيحدث بين الطفل وأبيه عن هشام ومصيبته، حتى كدت أن ألف وراء المرأة وابنها، واتلصص الخبر. كأمر طبيعي، لم أفعل، وأكملت طريقي إلى القهوة، حيث انتظرت هشام... ولم يأتِ!

(١٠)

أمي سافرت.. لم أخبرها أن هشام قبض عليه محرزا تلك الأشياء، التي كان يريد منا ابتلاعها وتهريبها خدمة للوطن. غبي هشام رغم تفوقه.. الحياة شيء آخر غير الدراسة. بديهي أن تتجنب الشجار، وبخاصة مع أمين شرطة، وأنت تضع مصيبة كتلك في جيبك. لا أدري.. لكن أظنه كان يتعمد الانتحار.

أمي سافرت، تحلم بالوسيم الذي يتمناها، متجاهلة أسبابه الواقعية، ورافضة أن ترفض، رغم إنها متأكدة أنها لن توافق. لا مانع من الائتناس بحلم لبعض الوقت.. فكرت أن أغيظها بخبر ضياعه، لكن عدت فخذلت إبليسي.

فكرت أن أطلب منها السعي لي في عمل، أو أن أطلب ذلك من أبي.. لا زلت ابنه على ما أعتقد.. تراجعت.. لا أجد ما يدعوني للسفر، لست متعجلا العمل، لست في حاجة لشيء.. فقط كل فترة هي حقنة المورفين ما أحتاج، لأجل الصداع اللعين، الأوف لي من رؤى.. للأسف سيقتلني، ولم يشخصه أحد.



السِّجْنُ فِي المَسْخَرَة



وأخيرا.. ها هو مجموع يؤهلها للذهاب.. حيث أرادت!

***

- لا تحفظون فروجنا فما حرصكم على حجاب رؤوسنا؟

صرخت بها هكذا بالفصحى، تلك السجينة السياسية، التي لا نرى منها غالبا إلا الصمت، وإن تكلمت فبالكاد بكلمة شكر أو زجر. أتبعت، وهي تنزع ذلك الحجاب الأبيض عن رأسها..

- إياك تلبسيه تاني يا مارجريت.. ولا أنا هالبسه.

رمته تحت قدميها، وأخذت تدهسه، وابتسمت مارجريت وبرقت عيناها، وأخرجت منديل رأسها من صدرها، حيث أخفته، وألقته أرضا وأخذت تفعل مثلها، وهي تلهث، وتبكي بصوت كالأزيز يخرج من بين أسنان تجز بشدة على بعضها.

في دقائق انتهى المشهد بكل إثارته، وبالطبع كان مكانهما تلك الليلة في الحبس الانفرادي، الذي هو ليس، كما قد يظن البعض، مختلى رائقًا بعيدًا عن سفاهة السجينات، أبدًا.

ظللت طول الليل أسمع نواح مارجو، مختلط بصوت أنين مكتوم، أظنه للأخرى. أفهم نواح مارجو، فهي رهيفة، ولدت وعاشت منعمة، ولا تحتمل غول الحبس الانفرادي.. لكنني لم أستطع تخيل ما يحدث للأخرى.. بدا لي خيرًا ألا أحاول تخيله.

عادت مارجو إلى الزنزانة في اليوم التالي، وأما تلك الأخرى، فلم نرها ثانية. كانت مارجو تتذكرها كل فترة، فتبكي، وتصَوصِو قائلة:

- كنت حاسة بس أني مفتقدة نفسي وعايزة أحس أني لسه موجودة جوايا.. كان شعري واحشني.. مارجريت كلها كانت واحشاني.. بس ماكانش قصدي أؤذيها أبدًا.

وأرد عليها..

- وأنت مالك.. هي اللي جابته لروحها وعملت بطلة.

فتهز رأسها وتبكي أكثر، ولا تقتنع.

في بعض الأحيان، يتكرر الألم، مصرًا أن يقنعنا أننا المخطئون، الذين يجرمون إذ يتألمون جرَّاء أشياء أمست طبيعية في حياةٍ قانونها الأزلي التكرار.

حكت (عدوله) — لا أدري اسمها الأصلي– لجارتها ..

- كل حاجة حسب ما تتعود.. نسبية زي ما بيقولوا العالم بتوع الثقافة.. عندك مثلا.. العيل يتكرع يقولوا له صحة وعافية إنما الكبير لو عملها يبقى مقرف وبيئة واطية!

ترد صاحبتها:

- يا باردة ما بتحسش.. يا هايجة وأهلها ما ربوهاش ووِش فُجر.. المهم لازم تبقى غلط وخلاص.. والستات التانيين اللي على قلبه حلوين!

أستدير إليهما فاتحة عينيّ عن آخرهما.. لا يمكنني التنبؤ أبدًا بما يمكنني سماعه هنا.. أستدير نحو مارجو لأقول لها — وأنا واثقة أنها لا تسمع مني شيئا —..

- تخيلي عندهم حق.. تغسلي ايدك من الأكل قبل ما تمسكي القلم والورق، وتغسلي ايدك من الورق قبل ما تمسكي الأكل.. الأكل وساخة بالنسبة للورقة والقلم والعكس صحيح..

أتأملها، وهي حتى لا ترفع عينها نحوي.. أكمل رغم ذلك:

- بتعبير تاني أكل العيش وساخة للفن والفن بالنسبة للقمة العيش وساخة!

ألكزها مبتسمة وأسألها:

- فاهماني؟

ترفع رأسها إليّ، ثم تغمض عينيها لتعود لتركيزها فيما لا أدري كنهه.

يا لها من خبرة تجربة لم أتخيل اكتسابها.. لكن التجربة حين تطول كثيراً لا تظل كتجربة. عند حد معين، وصلت إلى الاكتفاء، والتوق إلى يوم الخلاص.. تماما مثل الأثرياء المتشدقين بالاشتراكية، لا يمكنهم العيش في الفقر إلا كسياح التجربة، دون أن تطول كحقيقة وحياة. ألا يمكنني أن أعلن أنني اكتفيت من البطولة بهذا القدر؟

حين قال لي "الدنيا بتدور.. ربنا خلقها كده.. يعني اللي في وشك النهاردة بكرة في ضهرك". رددت في سذاجة: "يعني

اللي بيقف قصادك ينافسك ممكن بكرة يبقى بيسند ضهرك".
فقهقهه عاليا، وجاهد ليوقف ضحكه ليقول: "ممكن برضه..
بس الاحتمال الأكبر إن اللي النهاردة في وشك بيضحك..
بكرة ممكن يبقى جنبك خطوة بخطوة بيسابقك.. بعده
بيضربك في ضهرك.. يا ريت تحاولي تفتكري الكلمتين دول
هينفعوكِ"

للأسف لم ينفعوني.. لأنني لم أتذكرهم وقت كان لابد أن
أفعل.. صدقت وآمنت أخيرًا أن الخيانة بعيدة جدا عن
الخيال؛ فقط إلى أن تحدث!

كان يحذرني من نذالته، وأنا من لم أسمعه. وعلمت –
وعجبا – أنني الوحيدة التي لم تكن تعرف أنه الواشي الأشهر،
لكل من يدفع بأذنيه في طريق فمه.

قال لي، حين صرخت في وجهه، وهو يرفع إصبعه أمامي
محذرًا: " أنا فتّان نزيه.. عمري ما قبضتش قرش ولا خدت
استفادة وربنا يعلم.." غلبه الضحك قبل أن يكمل.. " هي
متعة الحكي بس والله مش أكتر".

متعة الحكي!.. تكفي جدًا ليزج امرأة في السجن، ويظل ضميره مرتاحًا لأنه ليس مأجورًا أو مرتشٍ. ألا هنيئا لعالم القص والحواديت إذًا!.. لو كان يقبض أو يستفيد فربما كنت أعذره، لكن لله في لله هكذا، فوالله لا أسامحه على حالة الغيظ التي منحني إياها طوال تلك الأيام.

شهران وثلاثة عشر يوما.. بعض الوقت لا زال باقيا.. سألت المحامي مرة.. لماذا لم يحكموا بوقف التنفيذ، كما هو مفترض للسابقة الأولى.. ابتسم ابتسامة عريضة، أحسست معها بخيبة اختياري له، وأخبرني في حبور أن الأمر – بيد أولي الأمر – صاغوه في قضيتين سارت سجالاتهما في المحكمة جنبا إلى جنب، فلم تعد مجرد سابقة واحدة أولى.

سابقتان معا، وبقيت واحدة لأكون – لغويا– حاصلة على لقب "سوابق". تخلعني نحمده من شطحاتي وهي تصرخ بصوتها الحاد، كاحتكاك صفيحتين معا:

- لأ دنا أشرطك وأخلي وشك شوارع..

معركة نسائية جديدة تبدو على الأبواب.. أتذكر انبهاري بأول متابعة لحلبة مقاتلات الإناث.. أوقفهن وقتها فقط شدة

ما تقيأت في وجوههن، ولولا أن ازرق وجهي وانقطع نفسي من عنف الطرد المِعَدي الملتهب، لاجتمعن عليّ يعلمنني احترام أدائهن كتلميذة على أعتاب الأساتذة. تلك المعارك، التي الاستباحة عنوانها والحياء خصيمها الأبدي، اكتشفت فيها للمرة الأولى، وليست هناك أخيرة طالما أنا هنا، كيف إن النساء – مساويات للرجال– يقلن كل شيء، ويُجدن كل لغات البذاءة، وتستبيح أيديهن كل محرمات الأخريات، حالما تنجلي شياطين الإيذاء في لحظات الغضب.

أتابع التحركات حولي بانتباه، محاولة توقع اللحظة القادمة.. لعبة هي تسليتي الوحيدة منذ شهرين وثلاثة عشر يوما. ذات مرة، لوحت بقبضتي فخورة بتحقق توقعي على رقعة المشهد؛ لكن العاقبة لم تكن طيبة. يومها تحركت (الفيل) فأكلت (الطابية) غير المحمية، وقفزت (الحصان) لتعوض الخسارة وتعض (الفيل)، فوقعت (الفيل) بأرطال الوزن الزائد مع الشيبة المستهلِكة عمرها، ولتقتني في الأيام التالية شريحة بلاتينية قيّمة في ساقها تربطها عدة مسامير، بلاتينية أيضًا..

- تشرطي مين يا موس مصدي؟ دا أنا أشرحك وآخد منك الكام حتة بلاتين اللي متربطة بيهم وأشرب بيهم ازازة بيرة عالبحر.

لو سمعت مثل ذلك التعبير قبل أن أعيش وسط ذات الساق البلاتينية وغريمتها موس الحلاق الصدئ، لقلت إن الأمر لا يعدو كوميديا ينقصها فقط أن تعلو ضحكاتي الشغوفة. الآن أفهم أمورًا أكثر في مشهد الحياة الجديدة — عليّ — القديمة كالأزل، فأعرف أن الهانم الأولى لا تتورع عن تشريط أي طفل وفقأ عينه، لكي يجيد استجلاب رزقه من التسول، والراقية الثانية — أو ربما بالزاي (ز) وليس الثاء أقرب — لا تتورع عن بيع دم الأخرى وليس فقط ما تحتويه من بلاتين، من أجل زجاجة البيرة على البحر، تتعامى بها عن منظر زبائن الغرام من حثالة البشر.

أفضل أوقاتي على الإطلاق، حين تنشغلن بالزيارة. أكتب أشياء كثيرة في ذلك الهدوء، ثم يمحوها الوقت من عقلي.. المشكلة مع كتاباتي أن العقل غير مؤهل للاحتفاظ بها. الأوراق هنا أيضا غير مؤهلة للاحتفاظ بغير أثر المسح بعد

قضاء الحاجة.. هو ذلك بالضبط ولا داعي للقرف. وقت حصل ذلك أول مرة لم أعرف ماذا يمكن أن أفعل أو أقول.. اقشعر جلدي.. فقط.

لا زالت مهنتي رغم كل ما حولي تحميني. قد لايكون لي في ساحتها مكان بعد خروجي، لكن أظل أعتقد أن عدم استدعاء ضباط السجن لي بصفة فردية، وراءه فقط مهنتي الصحفية، وما يمكن أن تطالهم به من فضائح. ليس سواي أنا ومارجو من لا نستدعى لهذا الغرض. للكنيسة أيضا قوتها أمام مثل تلك الأمور. بعضهن –كراوية مثلا– تحكي مغامراتها مع الضباط بكل تفاصيلها للأخريات، مستثيرة غيرتهن.. والعجيب أن بعضهن تغِرن فعلا!.. ذات مرة تجرأت وسألتها كيف تفتخر بذلك الحرام، فضحكت ضحكة ذكرتني بكباريهات أفلام الستينات، وقالت: " قال يعني احنا داخلين السجن بالحلال!" وخبطتني بشدة على صدري، وأضافت: " فوقي يا شابة انتِ في السجن مش في الجامع"..

نسيت أن أقول إن مارجريت لم تخلع حجاب رأسها أبدا هناك!

....

أشار حيث أحد منازل المترو المغلقة القذرة وهو يقول لها:

-بصي الست اللي هناك.. تفتكري بتفك حسرتها بجد؟

صدمتها وقاحته، وندمت أن التفتت تلقائيا إلى الشابة المقرفصة على سلم المترو، رافعة ملابسها حول وسطها، متظاهرة بمحاولة ستر نفسها. دارت بعينيها في الميدان الكبير، المتاهة، واشمأزت من كل ذلك الزحام الفوضوي، والضجيج المتصايح من الأصوات المحتشدة في أذنيها. جرّها من يدها ليدخلا محطة مصر، ووقفا ينتظران القطار.

- أهي هي دي مصر المحروسة وستاتها الفجرة. أنا مش موافق أبوكِ على علامك في مكان ملوث زي دا..

أمسك يدها بقوة، وأكمل:

-صدقيني يا منة الأخلاق دي ما تناسبكيش ولو تدخلي التربية النوعية في بلدنا وتبقي مدرسة حضانة مروقة دماغك وبعيدة عن القذارة دي.

يتنهد بصوت، كأنما يحرص على إسماعها..

-أنا جبتك أهو علشان تشوفي بنفسك أني مش باضحك عليكِ واستخيري وخليكِ مع ربنا واطلبي ستره قبل ما تطلبي العلام اللي مش هتستفيدي بيه..

كان القطار قد وصل، فسحبها من يدها، ودفعها أمامه مزاحما النزول، موزعا سبابه هنا وهناك، حتى أجلسها في كرسي، وحشر نفسه ليحجز الكرسي المجاور لها.

سألته: هو مش التذكرة عليها نمرة الكرسي؟

ضحك متهكما ورد..

-دي الدرجة التالتة يا منة.. البشر فيها اللي ما ياخدش حقه بدراعه يتوكس على عينه...

شرد للحظة ثم نظر إليها بقوة..

-أو ياخده بالعهر زي الولية اللي بتشد..

قاطعه التقزز على وجهها، فسكت برهة ثم استطرد:

-دي تعتبر غلبانة يا منة.. بنات الجامعة هنا زيها كده برضه لجل يراضوا أساتذهم وينجحوا.. ما تستغربيش.. مصر أم العجايب على حق.

بعد صمت طال، يقضه صرير عجلات ازداد ثقلا، قالت في تردد:

-هو بلدنا يعني مافيهاش الوحش زي ما فيها الكويس؟.. ما الوحش في كل حتة والكويس برضه!

ضيّق عينيه شاعرًا أن مجهوده وإنفاقه على هذه الرحلة مهددان بالضياع..

-افتكري كلام سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام.. مش حذرنا من علم لا ينفع؟ هتعملي ايه بالألسن دي أما الرجالة نفسهم مش لاقيين شغل؟

سكتت.. لا جدوى من الكلام معه، ولكن أملها في ألا ينصاع أبوها لرأيه. تفكر فيما وراء إصراره ذاك.. هو لن يحمل مسئوليتها في شيء، فسوف تكون في مدينة الطالبات، وخالتها تعمل هناك أيضا مشرفة، فلا مبرر لكل ما يقول. هل يخشى أن تعرف عنه شيئا؟ إنه في الأزهر، جامعة بعيدة عنها، ولا مجال حتى للقائهما، وإن جمعتهما القاهرة..

القاهرة! شردت فيما رأت اليوم.. كبيرة جدا تلك القاهرة، ومزدحمة، وما أسهل أن تتوه فيها.. الغريب أعمى

وإن كان بصيرًا.. أحست بذلك اليوم، وتعلقت طويلا بيد أخيها، خائفة واجفة.. الواقفون متجارون لا يعرف أحدهم أحدًا.. الصياح والعراك واحتكاك الأكتاف – وربما أجزاء أخرى – يحدث كل بضعة أمتار. مرعبة تلك المحروسة!

أفاق عنادها، وقد كادت تميل لرأي ضرغام، فأغمضت عينيها لترى نفسها في مدرج الجامعة، تحقق حلمها، وتتخرج، وتعمل كمضيفة جوية، وتسافر إلى كل بلاد الدنيا.. لو خافت من القاهرة، فكيف تواجه بلاد الأجانب؟.. لا ينهزم من يحفظ طريقه ويصر عليه،و.. "ربنا موجود".

***

يقولون ما أسرع الأيام.. في الحقيقة ليست كذلك في السجن ولا بعد الخروج منه. أنا لا أفهم ما يجرى تمام الفهم، كل هذا الترحيب بي، والسعي إليّ من كل أولئك العاملين في صناعة النجوم من كل مجالات الإعلام. آخرهم تلك الممثلة، التي أرادت أن تمثل تجربتي في السجن، ولا يعجبها أن يخلو الدور من "الأكشن" والاغتصاب وأن يقتصر دورها على مراقبة ما يدور هناك من الحيوات العجيبة. اقترحت عليها أن

تقتبس قصة إحداهن؛ لكنها قالت إن قصصهن تقليدية، والأهم أن وجودي كشاهد على واقعية الفيلم هام جدا للدعاية له. اعتذرت مبدية أسفي لعدم استطاعتي الموافقة على ادعاء ما لم يحدث، متحججة بأن ذلك سيصم حياتي الشخصية، ولن أجني منه خيراً.

المضحك في الأمر أنها لم تعدم حيلة، ومثلت الفيلم رغم ذلك، تسبقه الدعاية أنه عن قصة حقيقية لشخصية معروفة، حرصوا على إخفاء اسمها لمصلحتها الأمنية!.. والمضحك أكثر أن الفيلم منع دون سبب معلن.. أما قمة الغرق في الضحك، فهي أنني مجددا في السجن بسبب ذلك الفيلم، أجني حبسا بلا حماية هذه المرة، وأسمع عن أمجاد الفنانة والمخرج، ودعاية فاقت أي ربح كان للفيلم أن يجنيه.

***

- الصحافة مجالك مش الضيافة. أنت موهوبة يا ابنتي.

حين قال لها ذلك، غمرتها سعادة لم تهنأ بها، وسوسة ضرغام في أذنها تطن بنوايا الأساتذة العاهرة تجاه تلميذاتهم.

حين ابتسم أستاذها في خليط من الطيبة والخبث اللطيف وقال:

- الضيافة عايزة ستايل مش بتاع بنات الريف يا منة.. يبقى ما تضيعيش حاجة أنتِ ناجحة فيها علشان حاجة غالبا مش هتنجحي فيها.

أحست وقتها بالإهانة، ولكن شيئا ما في نفسها همس لها بأنها الحقيقة. يقول زملاؤها عنها إن جمالها فلاحي، أن بها لؤم الفلاحين، أن لهجتها التي لا تحاول تغييرها تجعلها مميزة.. نعم مميزة هي بسِمتها الريفية الجلية، تماما مثل تميز غيرها ببيئاهم. يومها قررت خلع ثوب الطفولة وإنهاء حلم الطائرة.. الواقعية سبيل أفضل للنجاح، وربما تسافر أيضا كصحفية وليست ك (جرسونة) جوية.

***

الاعتقال أمر مختلف كثيرًا عن الحبس في قضية مثبتة. أنت في هذه الحالة لا مكان لك، ولا اسم يبحث عنه من قد يهمه أمرك، ولا اعتبار لوجودك أو مرضك أو موتك، فأنت لست أكثر من شخص اختفى في ظروف غامضة، وربما أيضا

تكتمل المسخرة ويبلغ أحد عن غيابك، فيبحث عنك رجال الأمن أنفسهم!

لا يزال هناك جانب إيجابي في الأمر، فالزملاء حولك تجربة مختلفة، وأجواء الحياة أرقى..

أجواء التعذيب أعلى كذلك!

***

غضب لم يره البيت من قبل.. صراع بين أبيها وضرغام أخيها، تختمه أمها – بالأصح أم ضرغام، زوجة أبيها – بقسم أن ستترك البيت إن لم تسافر منة للجامعة في القاهرة. يبدو الأمر قد تعقد كشلة صوف عبثت بها قطة؛ فضرغام يواجه أمه كما لم يحدث قبلا، حتى اتهمته – ومنة بالتبعية – بشذوذ طلبه وتمسكه وغيرته، سائلة إياه إن كان قد نسي أنها فقط أخته وليست زوجته.

جرحت منة؟ بالتأكيد نعم.. وازدادت تمسكا بالفرار إلى حلمها وذاتها، ورمي كل تلك القمامة وراءها..

- يا ماما بالراحة على ضرغام أنا شفت القاهرة وهو عنده حق هي تخوف التخين.

- بتدافعي عن ايه ده متخلف غبي

- لا والله هو بس خايف عليّ وأنا هاحاول معاه تاني المهم أمشي بالورق وعلى ما الدراسة تبتدي ربنا يأذن بالخير

رغم إن ربنا لم يأذن بالخير على يد ضرغام، إلا إنه لم يكن من بد أن يكتب القدر حلاً، طالما كتب لها الانتقال إلى قاهرتها.. لم تطل التفكير في قبول الحل المقدر، والزواج بابن خالتها والإقامة مع أمه وأخوته. المنطق يحتم أن تكون معهم، طالما زوجها سيكون في بلد آخر، بعد أن يحولها إلى سيدة ببضعة أيام.. لا بأس، قطعة من الجسد تهتك من أجل تحقيق الهدف، ثمن تقبله. هذه المرة أيضا عصلج ضرغام، لكنه لم يستطع الصمود أمام شك أمه فيه.. وتمت الصفقة.

السفر إلى ما قبل الموت فن ومهارة، تعتمد على من يرسلك وليس عليك أيها المسافر.. مرحلة عجيبة جدا، ترى فيها ما لا تدرك إن كان حقيقيا أم ضربا من هلاوس، ذات بصمة – تجدها بعد العودة– على جسدك.

الخمر.. أحمر اللون، ليس عنبا، بل له طعم معدني بعض الشيء.. طعم يشبهك أنت نفسك.. ينز ينبوعه من جلدك إلى شفتيك، ولا يكف في حلقك حتى ترتوي..

النور.. يطغى في عينيك على كل الصور، وتراه في قلب الظلام كومض الكهرباء، بينما جفناك مغلقان بقوة.

الألم!.. ما هو الألم؟!.. إنه إشارة الاستثارة، ليفرز جسدك تلك المواد شبيهة الهيروين، ويتقن إطلاقها تماما ذلك الموهوب، الذي يعمل على إرسالك في تلك الرحلة كل مرة.

الجسد.. عليك أن تكرهه، على الأقل أن تتجاهله، وتركز مع روحك.. لا تحاول أن تنظر لتلك التحولات، التي تجِدُ على أجزائه بعد كل رحلة.. إنه أنت الظاهر، فقط الظاهر الذي لا يعنيك.. علبة الماسة، التي لن تؤثر في لمعانها.. مهما تهرأت!

***

حين يسافر يخدم نفسه.. تخدم نفسها وأمه وابنه.. حين يعود يريد من يدلله، فقد كان يخدم نفسه طويلا.. حين يعود يجب أن تخدم أربعة، فقد خدمت ثلاثة فقط طويلا.. الجيد في

الأمر أنه يعود في وقت إجازة الدراسة، فتتقبل الأمر بلا مبغضة كبيرة.. حسنا.. كلمة كبيرة هنا تعني شيئا ما..

اللقاء الزوجي على برامج الفيديو شات ليس دائما يحمل الأشواق..

- ما تقومي يا بت تلبسي حاجة تفتح النفس كفاية نشفان الدم اللي الواحد فيه.

- الدنيا برد قوي يا مصطفى.

- برد ايه الحرارة عندكم قدامي اهيه ٢٦

- مستحيل والله الدنيا برد جدا...... طيب ما تزعلش حاضر.

- في المرة التالية كانت محمومة، وكان يعتذر..

- أنا مدين لك باعتذار على فكرة

- ده ليه؟

- ناس معانا راجعين من مصر بيحكوا على البرد العجيب اليومين اللي فاتوا

لم يكن ليصدق حتى يسمع من غيرها.. هل يؤلم ذلك؟.. يتوقف الأمر على أشياء أخرى.

***

الحياة في خضم الصحافة مبهرة حتى الثمالة. لو منحتها كل وقتي لما كفى أن أحقق ربع ما أطمح له. لا يستهويني التحرير وأعمال المكتب، بل أسعى وراء ما يسمونها لأجله مهنة المتاعب.. وقد تعبت.

الصدق ليس دائما مسموحا به.. من أهم ما تتعلمه إن أردت الاحتراف أن تقدِّر متى تقول الحقيقة، ومتى.. على الأقل تصمت عنها. طيبك لايتعارض مع كل ذلك، إنها فقط مستلزمات المهنة.. يقول اختصاصيو علم النفس إن علينا أن نرمي العمل عند بابه، ولا ندخل به بيوتنا، وأن ننسى بيوتنا عند الباب، ولا نذهب بمشاكلها إلى العمل. حسنا أحب أن أحترم وجهة النظر التخصصية..!

***

ذلك الطفل يعاند الحياة طبيعيا. منذ حبت أطرافه الأربعة على الأرض، دب يبحث عما خلق عليها من علل. تحكي لأبيه عن تلك الحمى التي تنهكه، ذلك السعال الذي يوقظه طوال ليل الأمس.. أو آلام التسنين التي تبكيه وتجعله يأبى الطعام.

لأنه بعيد – ربما– فهو يبدي الضيق من مثل تلك الأخبار المثقلة بالنكد. حماقا – خالتها – تحكي له أحيانا أخرى عن ضعف صحة الطفل، فيصيب زوجته منه بعض اللوم لإغفالها إخباره. على كل حال لن تغفل مجددا، فقد نفق الغلام في نوبة الإسهال الأخيرة.. هكذا.. فجأة كالعطسة، لم يعد هنا!

***

لؤم الفلاحين ينفع فيما يعرفه الفلاحون فقط. لكنه لا ينفع إطلاقا مع خبث أهل المحروسة. من أقسى ما يمكنه إيلامي أن أعرف في نفسي الغباء.. لطالما وثقت بذكائي وقدراتي الذهنية.

أقنع نفسي بأن انخداعي لم يكن غباءً، وإنما غفلة عما لم أَخبَره قبلا.. أو ربما اندفاع وراء حماس الصحافة، لم يحمل حكمة الحذر. فرق كبير بين أن تعرف الشيء سماعًا وبين أن تكتوي بتجربته.. ولقد أدركت سهولة اختفاء أي شيء من أي حافظة، ببنك.. بأرشيف جريدة.. أو حتى المودع منها بالمحكمة. لا شيء اسمه امتلاكك لدليل، طالما يحفظه عنك أهل الـ (ثقة)!

***

لم يعد لها مكان في بيت خالتها، فقد نابها الطلاق بعد وفاة الطفل. أبوها أيضا مات منذ فترة، وضرغام وزوجته وأبناؤه يشغلون الحجرات هناك مع الجدة، التي كانت يوما ما تناديها بلقب الأم. كل ذلك كان جيدا جدا، فلم يعد أحد من كل أولئك يرغب في ممانعة إقامتها وحدها بجوار عملها بالقاهرة، خاصة وهي لا تفتح أبواب السؤال عن القراريط الأربعة، نصيبها في تركة أبيها.

الكل مرتاح، المكسب للجميع، العدل هو أن يرضى المقتسمون.

يؤذيها كل حين تذكر طفلها المفقود. تتساءل أحيانا إن كان حرمانها منه عدلاً سماويًا، إذ لم يمثل الأهم لديها يومًا. تخبر نفسها أن الله قد اختار له الأفضل.. أبوه كذلك لم يعن بأخباره يومًا.. لكنه احتفل بالـ (ولد) هناك بين رفاق الغربة.. لقد ملأ الأرض فخرًا!.. إحقاقا للحق، فقد عناه خبر وفاته، وآب من سفره لتلقي العزاء، و.. لطلاقها.

في تلك الأيام قدمت هي عن نزلات الأطفال المعوية "ريبورتاج" كبيراً، سبت فيه كل مسئول عن تلوث المياه، وكل

مستورد لحلوى الأطفال الرخيصة ذات الألوان المسمومة، وكل طبيب يستهين بأعراض المرض.. صعَّدت سبابها كلما ارتفع المقام الوظيفي للمهان.. نالها إنذار شديد اللهجة بعد النشر.. وهدأ ضميرها!

***

بين الوعي والغياب أراه.. كان يمسح رقبتي، فأميل برأسي للخلف، فيتذكر قطته ويشبهني بها.. كل يعشق تدليلي..

حين أردت تدليله، قررت أن أصنع له المربى، التي يتذكر دائما أن أمه كانت تصنعها له في بدايات الشتاء.. قبل أن يأتي، خطر لي أن أتذوقها لأطمئن.. وقتها تأكدت أن التفريق بين الفجل والجزر الأحمر كان يحتاج لمهارة لم أمتلكها..!

حكى لي أن أمه أبت أن يسافر، حين ضربت الحرب بلاده.. كان في الحادية عشر، ونزل ليحمي البيوت مع جيرانه.. الخيالات المظلمة التي تجري أمام عيني الآن مع تذكرني بما حكاه عن خيالات مظلمة كذلك كانت تتلذذ بتعذيبهم.. امتلك هو حضن أمه في الفجر، تعيد إليه طفولته،

التي تركها وراءه حين نزل؛ لكنني لا أمتلك أي حضن في نهاية الجلسة هنا!

لؤي.. هل حقا أن فلسطين وحدها محتلة؟..

رفعت رأسي، ومن بين جفنين متورمين لا يكادان ينفتحان، رأيت الحائط القذر.. تلك الأسلاك الكثيرة.. لؤي ليس هنا!.. لم يعد هذا زمانه.. نظرت لذلك الرجل، وسألته:

- هو احنا في فلسطين؟

سكت ولم يرد لبرهة.. وفي الـ... لا أدري أهو الصباح أم المساء، ولكنه بعض الوقت الطويل مر، ثم أتوني بطبيب نفسي!.. يبدو أنني أُدَلل!

***

كامرأة، وقد سبق لها الزواج كذلك، من الصعب أن تظل بلا رجل. ليس ذلك عيبا وإنما فطرة طبيعية، كما كانت تقول.

فرق السن لم يلفت نظرها، هل لافتقادها أبيها؟.. هل لظروفها؟.. هل لاحتكاكها دائما بالسن الكبير بين أساتذتها

ورؤسائها في العمل وعدم التفاتها لزملائها؟.. هل الجنسية تصنع فرقًا؟.. بعد بعض الوقت تأكدت من ذلك الفرق..

"نصيحة بلاش".. ليست صديقة لها من تقول.. ليست مشكلة الأبناء فلسطينيي الجنسية، حيث لا حق لهم في تعليم ولا علاج ولا أي شيء، أو أن يكبروا على أرض تنفي انتماءهم، ويتشمموا هواء هم دخلاء عليه.. ليست أن يلومها من يؤمنون بحدودٍ وضعها أجدادهم دون مبرر واضح.. المشكلة التي لم تحسبها، جاءت في نصيحة رئيس التحرير.. تكبيل من نوع آخر ينتظر.. تكبيل يجب أن يلفت نظرها، ويصنع فرقا، ويخيفها من القادم..

العجيب أن لؤي لم يغضب.. لم يحزن.. لم يتأخر في وداعها!

***

يقول: الديمقراطية هي حكم الأغلبية والاشتراكية هي الانتصار للقاعدة الفقيرة المنسية..

ويقول في نفس الوقت: الأخذ برأي الأغلبية الجاهلة مضيع ويجب العمل برأي النخبة!

في رأيي.. هذه ليست إلا نظرية "الخِراء ليس إلا جزء من الطعام"

لو لم يكن الحل تغيير رأي الأغلبية، فلا حل هناك.. والغالبية تلك لا يعنيها كثيراً أن يكون لها رأي.. إنها مبايعة الحاكم على تولي المهمة بدلا منهم.. أتفهمين؟ بدلا منهم، وليس نيابة عنهم.. هناك فرق.

لم أستوعب كثيراً منظوره، وأدركت كم أنا بعيدة عن النجاح في محاورات السياسة.. قلت:

- السياسة.. اللعبة القذرة كما يقال عنها..

قاطعني:

- السياسة مرادف للقذارة، والسياسة الذكية هي لعبة التمهيد والصياغة للقرارات نافذة الرائحة، بضخ بعض الأنفلونزا في أنوف الجماهير.. من يجيد ذلك يحتشدون له ويفتدونه بالروح والدم، وينتصرون له في أقسى هزائمه أيضا.

سألته:

- أأنت ناصري حقا؟

قهقه عاليا..

- هكذا يظنونني..

حدق في عيني للحظات، وأكمل:

- أنا فقط أعشق العيون الجميلة.

مالِ ذلك وما نقول!.. ولكنه ديدنه دوما، لا أكمل معه حديثا، ولا أصل لقرارة نفسه مرة..

زارني مرة، بعد انتخاب الإخواني مرسي، وكنت قد خرجت من القبر، بقدمين مرتخيين، أحآني لتكنولوجيا الكراسي ذات العجل، طلب مني أن أعمل بالقطعة.. تعجبت شروطه، وسألته إن كان لا يزال ناصريًّا أو لا يزالون يظنونه كذلك، فرد عليّ:

- كان يا ما كان.. وقف الرجال ذوو الملابس ترابية اللون أمام قبر الشيطان، ودعوه بعد تمتمات كثيرة قائلين: انهض.. فكانت "النهضة" التي لم يتمنوها أبدا.

نظرت إليه، فرأيت شيطان حكايته في عينيه.. تعجبت ألا أخاف منه.. ابتسمت، وأنا أتذكر شيطان الطب النفسي في

الاعتقال.. ووافقت على كتابة المقالات النسوية.. "الزفارة بتوسخ الورقة والقلم، والفلسفة وساخة وقت لقمة العيش.."

***

كان يقول لها في تشبيه تلك النوعية من الناس: "زي الحريم اللي تلاقيها خمسين وستين سنة ولسه برضه بتشتكي كل شتا إن الغسيل مابقاش بينشف"..

هزت رأسها مبتسمة ودعت له بالرحمة. رغم كونه فلاحا لم يخرج من قريته، كان أكثر حكمة من أكثر من قابلت من الرجال.. أو ربما ترى النساء آبائهن هكذا، على غير الحقيقة؟.. ربما!

لكنها أصبحت من تلك النوعية.. كل يوم تبحث عما إذا كان مقالها قد نشر.. وكل يوم لا تجده؛ فتتصنع أنها لا تعرف، وتتسلم تلك المعونة، المواربة وراء ما تسلمه من مقالات، من ذلك الرجل، الذي لم تكره أحدًا كما كرهته، وبابتسامة ودودة لا تحمل وراءها إلا غلاً.

***

قلت له - هو.. مجرد أحدهم- :

- أنا لست مرتبطة وأنت كذلك، وأحبك وتحبني، ما الغريب أن أسأل عن زواجنا، أليس ذلك منطقيا؟

نظر لي حينها نظرة لم أفهمها، وإن اقتبستها فيما بعد كثيرًا، قال وهو يتأمل اللاشيء بعيدًا عن وجهي:

- نحن نأكل اللحم، أي العضلات.. للشرج عضلة تمنع البراز أيضا، فهل نأكلها؟

ابتسم وركز في عيني وأكمل:

- هذا هو المنطق الذي يؤرقك.

غضبت، لم أظهر ذلك، بل كساني الصمت، وانتظرت قليلا، بينما يتشاغل بأي شيء، وتركته وانصرفت، على موعد قررت أني لن أجيئه به. وفي نفس الموعد بعدها بأسبوع، ذهبت.. لم يبتسم، ولم أبتسم، وفقط ابتسمت احتياجاتي حين شبِعت. وبعد الشبع، يبدأ الملل كالمعتاد، فكان المنطق.. نعم المنطق، أنه لم يكن آخر من يجعل جسدي يبتسم.

***

جالسة على كرسيها ذي العجلات، على رصيف كوبري قصر النيل، سارحة مع النهر ومياهه المعتمة.. جذبها نداء امرأة تتكلم من حلقها بصوت غليظ.. : "أيوه الحب"!.. حاولت التركيز أكثر.. هو ذلك بالفعل.. تنادي بائعةً للحب!.. زادت.. "عالمزاج يا حب"!.. حركت عجلات الكرسي، لتلتفت وترى تلك الجريئة ببضاعتها، فوجئت – ربما فوجئت– بها وجلد وجهها الشيخ يذكرها بتجاعيد جلد الأفيال.. يحتمل أيضا أن فوجئت أكثر بشاب –ربما يصغر أحفاد تلك الفيل– يستوقفها ويبدأ في التفاوض!.. هي أيضا منحت جسدها للحرام، لكن ليس بمقابل.. ضحكت.. وشى بها يوما دون مقابل.. مفارقة ما هنا!

صورة قديمة، قِدم عقدين من الزمان، غزت عينيها، فأغمضتهما تستجدي بقاءها.. هناك طالبة ذات جديلة، تمد خطاها في الشارع.. يدلل أحدهم بضاعته: " يابتاع الصواني يا بطاطس".. " يابتاع الخزين يا توم".. ويختص صاحب قدرة الفول بضاعته "طيــب".. تمد خطاها أكثر نحو جامعتها، وأنفاس الأمل البسيط تبتسم!

أشاحت عنهما بوجهها نحو النهر، صدمها كل ذلك التلوث والبقع في مياهه، فانجذبت إلى بقعة حرق بقيت على ظهر يدها. عادت لتلمح مانشيت جريدة في يد أحدهم.. هاجمتها ذكرى مانشيت: "صحفية تتعاون مع مصادر صهيونية"، بصرف النظر أن ذلك لكشف تعاون آخر!.. من بعيد بدا لها مبنى جامعة الدول تكسوه كذبة الشموخ.. أمسكت في عجلاتها، وابتسمت لنصفها المشلول، مجتهدة أن تمنع صخب الضحكة..

شيء ما ليس طبيعيا!.. تلك جملة يقولها السذج حين تفاجئهم الحقيقة أنهم ليسوا إلا جزء منسجم جدا مع اللوحة الكبيرة!



عَبْدٌ.. وإِلَهٌ.. وَأَمْرٌ بَسِيط



(١)

أخرج علبة سجائره، أخذ واحدة، ووضعها بين شفتيه.. قبل أن يشعلها سألني:

– بتضايقك ريحة السجاير؟

هززت رأسي نافيا، لكنني لم أخبره أنني في الواقع أعتاد البرشام. استنشق دخان سيجارته بقوة، ثم قال لي في هدوء:

– عارف ايه الفرق بينك وبين ربنا؟

قاطعته مندفعا بنعرتي الدينية:

– نعم!

أشار ليّ أن اهدأ..

– مش قصدي حاجة.. أنا مش ملحد، أنا بأصلي وبأصوم وحجيت كمان..

هدأت قليلا، وإن لم أطمئن؛ وعاد هو إلى ما يصر أن يكمله..

- هي حبتك، طلبت من ربنا الحلال، اداهولها واتجوزتك.. إنما لما هي حبته، طلبت منك الطلاق علشان تتجوزه في الحلال، أنت ما اديتهولهاش

قمت من مقعدي، ظننت أنه سيسألني الهدوء والجلوس ثانية، لكنه تركني أنصرف، دون أي كلمة.

خرجت من عنده، لأنظر بغضب إلى الجالسين في انتظار أدوارهم.. التفت إلى السكرتيرة، وتذكرت الجنيهات المائة وخمسين، التي دفعتها، ولن أستطيع استردادها. بحثت عن كرسي خالٍ، فلم أجد، حتى نادت أحدهم للدخول، فقام ومعه زوجته - أو هكذا اعتقدتها - فسارعت لألحق أحد المقعدين.

بعد أن أدخلتهما، عادت، ونظرت لي تسألني عما أنتظر. مكفهرًا أجبتها:

- لسه ما خلصتش، خارج أرتاح شوية وادخل له تاني.

بقيت في مكاني، حتى كدت أثور في وجه تلك المتجاهلة وجودي.. دق في رأسي كلام سارة وهي تصارحني برأيها، لماذا

تظن أن اعتبارك هو أهم ما في حياة الآخرين؟، لماذا تظن أن كل سعادتي أن أخلع ملابسي لأجل نهم شهوتك؟

وقتها أمسكت ذراعها بقسوة جعلتها تصرخ، سألتها:

– ايه اللي اداهولك وأنا ما اديتهولكيش؟

لم أنتظر إجابتها، أجبت بدلا منها..

– أنت اللي نجسة ومش بترضي باللي يكرمك.. ما هو الممنوع مرغوب عند النفوس الواطية اللي زيك.

أفقت على السكرتيرة تناديني أن أقترب.. قالت لي بصوت خفيض:

– حضرتك الدكتور حدد لك ميعاد يوم التلات والمدام تيجي معاك.

خبطت على المكتب أمامها، حتى انتثرت أوراقها، ولكنني لم أنطق، نطقت كثيرا جدا من السباب بعد أن تخطيت عتبة العيادة خارجا. لكنني عدت مسرعًا قبل أن أهبط سلمات قليلة، لأسألها:

– دا يعني كشف جديد؟

تأففت، وقلبت وجهها تقول:

- لأ نفس الكشف يا سيدي بس الدكتور عايزكم سوا

نفثت في وجهها دخانا وهميا لسيجارة وهمية، وأضحكني أن هشت بيدها تطرده؛ لكنها لم تدعني أضحك لثوانٍ، بل حرقت دمي بقولها..

- في اختراع اسمه فرشة ومعجون وللا حتى لبان.. إف

(٢)

خابت توقعاتي تماما.. تخيلتها مطحونة مستنفذة من تقززها من زوجها، ومتخذة موقف المدافع؛ ولو حتى بهجوم مفتعل. لم تكن أيا من ذلك. أنيقة؛ رغم عدم أناقتها، مثيرة؛ رغم فقر أنوثة أسلوبها.. لا أدري.. لو كان الموقف غير ذلك، لحاولت الوصول إليها بالتأكيد.

– خير يا دكتور؟

انتبهت على جملتها، فابتسمت لها، ثم أخذت أدق بقلمي على أوراقي أفكر في السؤال التالي.. ثم لم يكن أمامي إلاالتقليدية الشديدة..

– مدام سارة.. أنت عارفة احنا هنا ليه؟

ضحكت، وأجابت بثقة..

– علشان حد فينا مجنون

قبل أن أنبري لشرح الفرق بين الجنون والمرض النفسي، قالت:

- أنا اللي مجنونة يا دكتور.. بحب صادق وبيننا عشرة جميلة، بس أني أطلب الطلاق دا مش سبب إطلاقا أننا نيجي لدكتور نفسي..

قاطعتها..

- لحظة يا سارة.. في هنا فرق لازم تدركيه بين الطبيب النفسي وأخصائي الأسرة والسلوك.. أنتم هنا علشان تلاقوا نقط سوء التفاهم ونقط الالتقاء.

نظرت سارة لصادق برهة، ثم قالت..

- نقاط الالتقاء احنا مدركينها كويس قوي.. ومافيش سوء تفاهم ولا حاجة.

- أمال ليه.....

قاطعتني.. في بساطة:

- الطلاق مش حرام

ألجمتني لحظة، تخيلت فيها لو أن زوجتي قالت لي هذا..

- في ايه يا دكتور بلمت ليه؟ أنا عايزة اتجوز واحد تاني..
حط نفسك مكاني وشوف الموضوع هيبقى سهل وبسيط قوي ازاي؟ أنا بقى علشان ست بقى مشكلة وحدوتة ودكتور!..

قامت من مكانها وهي تقول: حاجة غريبة والله!

قبل أن تخرج من الباب، قالت وهي تشير باستحقار لكلينا..

- على فكرة ال ١٥٠ جنيه تمن الكام دقيقة اللي بتسميهم جلسة دول حرام.. والفلوس اللي رايحة على ابوصلبية اللي بيبلعه البيه دا حرام.. إنما الطلاق بقى علشان اتجوز واحد تاني بدل ما امشي معاه مش حرام.

فتحت الباب خارجة، وهي تكمل، دون اعتبار لأن يسمعها المرضى بالخارج..

- كتكو القرف

تركت الباب مفتوحا، وأعيننا وأفواهنا كذلك.. ولأنني حرصت يوم القسم ألا أقوله مع الزملاء المتحمسين، وإنما

أعلقه في الصالة الخارجية كنوع من التسويق، فقد قررت أنني لن أدع طويلة اللسان تلك تمر عليّ مرور الكرام..

- الست دي مفترية.. أنت ايه مشكلتك في طلاقها يعني؟

نظر لي وهو يهز رأسه بغباء..

- ما ينفعش

بصراحة، لم أسأله عن السبب.. لا أعتقد أنها مسائل مالية أو متعلقة بأبناء.. هذا الرجل يدمن زوجته؛ حتى وإن خانته!

(٣)

كانت تجلس في أريحية، كأنما أستاذة أمام تلميذ صغير، وأنا أبحث داخلي، في غضب على نفسي، عن هيبة الطبيب على الأقل لأفرضها عليها. رفضت السيجارة، لا أدري أهي لا تدخن حقا، أم من تلك النساء اللاتي يخفين تدخينهن.. لا أدري في الحقيقة لماذا افترضت أصلا أنها تدخن!

حكت كل ما أردت منها أن تحكيه.. كل التفاصيل في علاقتها مع زوجها، وبعض طفولتها وشبابها قبل الزواج، منتهى البساطة والثقة المستفزة والوضوح غير المقبول – من وجهة نظري– .. حتى وصلنا إلى ذلك الآخر، الذي تريد الطلاق لأجله.. قالت في اختصار "حب" واكتفت بها رافضة الإضافة، ورافضة التشكيك في كونه "حب". لنا في ذلك أربع جلسات، تستفزني كطبيب، وكرجل، وكعقل اعتاد تحدي الغموض، فتاه في ذلك الوضوح المزعج. أربع مرات أنصت لها وحدها من دون زوجها، الذي ينتظرها عصبيا في كل مرة، ثم يحاول سؤالي عما عرفت منها.

بعد رفضها القاطع الكلام عنه، (س من الناس)، أخرجت زجاجة عطر صغيرة، ورشت قليلا منه في منديل ورقي، ودستها ثانية في الحقيبة، ثم تركته على المنضدة الصغيرة أمامها. هززت رأسي متسائلا، فأجابت:

– حرام أحط بارفان برة البيت، بس باحتاج اشم حاجة حلوة تريح لي أعصابي لما ابقى زهقانة

ابتسمت.. مزاجها صارخ الأنوثة.. أفلتت الكلمة من لساني "معلمة"، فأفلتت ضحكتها، لأقسم أن القادم هناك في آخر الشارع قد رفع رأسه ليرى من أي شباك انطلقت.

أشارت بيدها في وقار مناقض، وقالت..

– آسفة يا دكتور معلش.. باقول لك ايه.. من الآخر كده انت شايف الجلسات دي لها لزوم؟

أفهم تلميحها بالطبع، وبالطبع أيضا، في مثل هذه المواقف، الاستعباط سيد الأخلاق.

– ما قدامناش كتير كلهم كام جلسة كمان.. أنتِ مش حاسة أن الجلسات فرقت في علاقتك بجوزك خالص؟

قالت بابتسامة حقيقية..

- حاسة أنها فرقت في علاقتي بـ... أكتر.. بتأكد أكتر أني بأحبه وأني ما ينفعش أكمل في جوازي أكتر من كده

سألتها مباشرة:

- ليه؟

تنهدت..

- لو اللي سألتني فيه كله مش مكفي سبب.. هل أني بأحب حد غيره مش سبب كافي؟

لم أجبها.. لم تدع لي المزيد من الوقت للتفكير في إجابة، وقالت:

- لو مش سبب كافي في نظرك، يبقى اسمح لي أنصحك تطلق مراتك وما تتجوزش تاني

ارتفع حاجباي رغما عني، تعجبا لجرأتها..

وضعت يدها على صدرها، وهي تبتسم، وتؤكد بثقة..

- اسمعها نصيحة صديق.. والله الجواز مش منظرة ولا ديكور اجتماعي ولا حاجة.. ما ياما ناس مش متجوزة ومحترمة وسط الخلق ومراكز وأبهة

أرغمت نفسي على ضحكة متهكمة، وقررت مهاجمتها..

- ولو طلقتها، تتجوزيني؟

أشارت بالنفي في الحال بسبابتها اليسرى، وقالت في نبرة قوية:

- عمري ما أخونه

أخذت منديلها، الذي جف العطر عليها، واستنشقته مغمضة عينها لبضع ثوانٍ.. تمنيت أن تنساه هنا، لأعرف أي عطر تفضِّل. أعتقد أنني سأكرهها قريبا، فأنا لا أحب أن يطول التحدي كثيرا.

فتحت عينيها، قامت، حرصت على وضع المنديل في حقيبتها وإغلاقها، وسألتني:

- امتى؟

تلقائيا رددت:

- زي ما تحبي

كتمت صوت ضحكتها هذه المرة، وقالت:

- خلاص ابقى بلغ صادق لما يجيلك جلسته

وذهبت!

(٤)

دخل صادق، فدعوته للجلوس، ووقفت إلى الشباك أنظر وراءها، وهي تمسك هاتفها المحمول، وتخطو على الرصيف في جدية.. لابد أنها تكلم (س) لتخبره عن الجلسة.. تمنيت لو أسمع حوارهما.. غموض شخصه وإصرارها على عدم البوح بقصتهما يكدرني. التفت إلى زوجها الجالس ينتظر، وفكرت.. هل يمكنني أن ألتقي بالثالث؟!

– وبعدين؟

قاطعني صادق متضجرا.. اتجهت إلى الكرسي المواجه له، فجلست، لا أجد ما أقول.. الأمر تعدى معي أن يكون حالة أنا طبيبها.. تحول إلى تحدٍ شخصي، غير مبرر. قفز إلى رأسي السؤال في هيستيرية ملحة، لم تدع لي مجال لحساب عواقبه..

– أنت ليه عجزت أنك تبسطها جنسيا، بينما رجل تاني قدر يعمل دا؟

في الحقيقة.. جاء رده أفضل كثيرا مما توقعت. فقط، ركل المنضدة أمامه، وسكت. بصراحة، انبهرت. سؤالي مستفز لأي رجل، ولو أني من سُئلته، فلا أتخيل رد فعلي، لكنه لن يكون بذلك الاحترام. عدت إلى تقمص حالة الطبيب لأفسر موقفه.. أهو عنين؟ أكل ما سبق كان كذبا منه، وحرصا منها على العشرة؟

رد صادق، ليصدمني.. - سأسمي ملف الحالة "صدمات"-:

- طيب ماهي كانت بتستمتع كويس قوي ١٦ سنة.. يبقى السؤال الصح ليه هي بطلت تحس

رد مقنع؛ لكنني معاند.. لا لشي، ولكن لأنني لم يعجبني أن يسير الأمر هكذا. أفترض سيناريو مختلف، أسعى وراءه.

- يعني أنت ما طرأش عليك حاجة جديدة مؤخرا؟

يسترخي في مقعده، ويبتسم وينظر إليّ بمزيد من الثقة..

- ما تسأل دوغري يا دكتور.. في عجز وللا ضعف؟ لا مافيش.. بطلت أدلع فيها والكلام دا؟.. لا بالعكس.. هات عالصريح وريح نفسك وريحني

ذكرني بها تماما في هذه اللحظة.. عادي أن تؤثر ستة عشرة سنة فيهما، ليتشابها. ربما هذا يعني أيضا أن الرجل محق!.. لم تكن لتتأثر به، أو يتأثر هو بها هكذا، لو لم يكونا متحابين فعلا.

أصر على الاصطدام به.. لا أدري لماذا يستفزني لإغضابه، عكس ما تفعل بيّ امرأته..

- تفتكر هي دلوقت راحت تقابله، وهي ضامنة أنك معايا في الجلسة هنا؟

سحب قدمه كأنه سيقوم، مصدرا ذلك الصوت، الذي أقشعر منه، لاحتكاك نعل الحذاء بالأرض.. هز رأسه في عصبية نافيا، ولم يقم من مكانه للمسارعة بالخروج وراءها، كما ظننت أن سيكون رد فعله. قال بنبرة مستجدية لأن يكون ما يقوله هو الحقيقة..

– يا دكتور افهم.. سارة محترمة جدا.. هي ما أنكرتش أنها بتحبه، وطلبت الطلاق علشان تتجوزه.. يعني تفكيرها في السليم مش في الحرام

ابتسمت، وكررت كلمته مستغربا..

– في السليم!

كتبت أمامي: الطلاق حل وارد جدا.. عدت فشطبت الجملة، عضضت شفتي للحظة، ثم عاودت كتابتها، نافيا عن نفسي الميل إلى هوى شخصي في طرح الأمر.

سألته:

– ينفع تستناني ونروّح سوا؟

تفاجأ بطلبي، وكعادة أهلنا، نتحرج، أمام مثل تلك المواقف –للأسف–.. وافق بكلام بارد، عنت نبرته بصراحة أن لا تأتِ.. ولكن يبدو أنني الآن – مع هذه الحالة – متخصص في الاستعباط.

(٥)

سخيف كل ما يفعلانه.. سخيف تمسك صادق، عنادًا وليس حبًا، وسخيف بكل ما فيه ذلك المدَّعي الطب.. تشك كثيرًا أن جلساته تحمل نية العلاج، بل هي أقرب لمواعيد دردشة بين رجل لعوب وامرأة. للأسف ليس أمامها سوى تحمل سخافاته، فربما تخلفه أفضل من إجبارها على التداوي.

تتنهد.. كم تنهيدة تحتاجها كي يهدأ صدرها؟.. ذلك الحصار منهما يبعدها عن حبٍ تعيش به، وليس هناك ذرة احتمال أن تتخلى عنه. صادق يصر أن يبثها حبه.. يصر على أخذ فرصته كاملة، وعلى منحها الحنان والتفهم، فتكرهه أكثر. كذلك تلك الزيارة السخيفة المفاجئة من الطبيب لبيتهما أشعلت تحديها أكثر.

قررت أن بإمكانها الرفض، فرفضت الجلوس معهما.. أغلقت حجرتها عليها، تفكر في حل فلا تجد.. تشعر بالقهر، الذي يمرر حلقها، ويحز في صدرها.. تدور بعينيها في جدران الحجرة تائهة فتلمح الساعة.. تنسى الأمر كله في لحظة،

الضيق، والكدر، وهذين الجالسين في الخارج.. تفتح حاسوبها.. شباكين محادثة معًا.. تكتب في أحدهما، وترد في الآخر.. وتدير الحوار بينهما عشقا كيفما تتمنى!

الفهرس